قانون التبادلية عند كلود ليفي ستراوس

(الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة)

الباحثة: ديما جعفر مصطفى – كلية الآداب – جامعة تشرين

ملخص

شكلت اللغة صلة الوصل الأساسية التي ساعدت في فهم الكيفية التي انتقلت عبرها البشرية من حالة التماهي مع الطبيعة الفطرية إلى تشكيل الحالة الثقافية، وكلود ليفي ستراوس كان أبرز من أدخل المنهج اللساني في دراسة الإنسان أي الأنثروبولوجيا وقد اعتبر اللغة بمثابة نسق اجتماعي كسائر الأنساق الاجتماعية الأخرى وحالة تواصل رمزي شملت كل أشكال التبادلات الإنسانية بما فيها الشيفرات والإشارات. ناقش ستراوس قانون التبادلية باعتباره نسق تواصلي لغوي رمزي بين الجماعات البشرية كنموذج لحالة الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة الذي تجلى بصورته الأدق من خلال عملية تبادل النساء وما ترتب على ذلك من ظهور قواعد للزواج وحظر إتيان المحارم كحالة تنظيمية يمكن اعتبارها الخط الفاصل بين الحالة الطبيعية الفطرية والحالة الثقافية. يستطيع الباحث في بنيوية ليفي ستراوس خصوصاً أن يلاحظ وبطريقة غير مباشرة أن ثنائية (طبيعة/ ثقافة) وآلية الانتقال بينهما هي الجدلية التي سيطرت بالفعل على ثلة المحاور والقضايا الفلسفية التي قام بمناقشتها على الرغم من عمق وأهمية تلك القضايا متفردة، حتى أننا نكاد نلاحظ أن مجرى ومسار فلسفته يأخذ طريقه دائماً باتجاه هذه الثنائية فلا ينفك ستراوس يترك مناسبة إلا ويعود من خلالها لتذكيرنا بأن الإنسان وعن طريق اللغة خصوصاً تحول من كائن فطري غريزي طبيعي إلى كائن ثقافي. نريد من خلال هذه المقالة أن نبين ونوضح رأي ستراوس في هذه القضية من خلال تحديده للخط الفاصل فعلاً بين الطبيعة والثقافة والآلية التي انتقلت من خلالها البشرية إلى الضفة الأخرى من التطور المتمثلة بالثقافة.

الكلمات المفتاحية: قانون التبادل، اللغة، الرمز، النسق.

Claude Lévi-Strauss' Exchange Law (Transition from nature to culture)

ABSTRACT

Language formed the main link that helped understand how humanity moved from a state of identification with innate nature to the formation of the cultural situation, and Claude Lévi-Strauss was the most prominent who introduced the linguistic method into the study of man, i.e. anthropology, and considered language for him as a social system like all other social systems the other is a state of symbolic communication that includes all forms of human exchange, including ciphers and signs. Strauss discussed the law of reciprocity as a symbolic linguistic communicative system between human groups as a model for the state of the transition from nature to culture, which was most accurately manifested through the process of exchange of women and the consequent emergence of rules for marriage and the prohibition of incest as an organizational case that can be considered the dividing line between the situation Innate nature and cultural condition. The researcher in Lévi-Strauss's structuralism in particular can notice, indirectly, that the duality (nature/culture) and the mechanism of transition between them is the dialectic that actually dominated most of the philosophical axes and issues that he discussed, despite the depth and importance of those issues being unique, so much so that we almost notice that the course and path His philosophy is to always take his path towards this dualism. Strauss keeps leaving an opportunity without coming back to remind us that man, through language in particular, has transformed from an innate, instinctive, natural being into a cultural being.

Through this article, we want to clarify and clarify Strauss's opinion on this issue by identifying the actual dividing line between nature and culture and the mechanism through which humanity moved to the other side of development represented by culture.

Keywords: law of exchange, language, symbol, format

مقدمة

لقد قدم ستراوس مشروعاً أنثروبولوجيا ضخماً حاول من خلاله البحث عن عمومية المبادئ التي يمكن للمجتمع أن يتأسس عليها والتي غالباً ما تكون مبادئ مشتركة بين مختلف الجماعات وإن كانت ظاهرياً مختلفة الأمر الذي يؤدي إلى الكشف عن أصل الفطرة التواصلية الاجتماعية لدى الفرد، فمن خلال تطبيقه للمنهج البنيوي استطاع أن يرى أن الطبيعة البشرية واحدة وأن الإنسان هو إنسان في كل مكان إذ لا فرق بين عقل متمدن وعقل بدائي. بالإضافة إلى أنه طابق ما بين الطبيعة البشرية والتنوع الثقافي فقد جعل الطبيعة البشرية الحالة التضمينية لتنوع المظاهر الثقافية وبالتالي لم تعد تلك الحالة عبارة عن قطبين متنافرين.

إن الفكرة الأساسية عند ستراوس وفي معظم المواضيع التي تناولها بالبحث هي التركيز على اللاوعي البشري الكامن خلف كل ظاهرة وربطها بثنائية (طبيعة\ ثقافة) هذه الجدلية التي نراها واضحة في نظريته فقد حاول دائماً أن يبحث عن المبادئ الأساسية التي تحتجب وراء تشكل الفكر وحاول من خلال ذلك أن يصل إلى صيغة مشتركة تجمع البشر وهوما أطلق عليه مصطلح (المبادئ الكونية)، الأمر الذي اتجه به إلى يقدم نقداً واضحاً للمجتمعات المتقدمة التي رفضت الآخر وعدته الجحيم ووجد أن هذا الأمر يمكن توصيفه بأنه إنسانية غير لائقة فعلى سبيل المثال: يرى الأوروبيون أنهم تمركزوا على ذواتهم ورفضوا الأجنبي إلا أن الإنسانية برأيه تضع العالم قبل الحياة والحياة قبل الإنسان واحترام الآخر قبل المصلحة الذاتية. إن الثقافة من وجهة نظر ستراوس تُعتبر موروث رمزي منتقل بالكلام ومحمول ضمن لاوعي الفرد وهنا تتضح لنا العلاقة التي قام بمفصلتها بين اللغة من جهة والثقافة من جهة أخرى، ونستطيع بالتالي أن نفهم أن بنية النماذج والأنساق والظواهر الاجتماعية هي بنية رمزية لا واعية وبالتالي فإن الوقوف أمام العلاقات القائمة ما بين الألفاظ اللغوية تحيلنا إلى رؤية الظاهرات اللغوية الواعية على أن لها بنى تحتية لا واعية نغوص فيها لنكتشف عمومية القوانين التي تحكمها.

إن البحث في أنظمة العلاقات اللغوية أشبه ما يكون بالبحث عن مصفوفات ذهنية ترسم ملامح وشكل واقع العلاقات الاجتماعية خصوصاً العلاقات القرابية، فلولا اللغة ومقاطع الصوت والعلاقات الناظمة لها ما كان ثمة إسقاط خارجي لأي نوع من أنواع العلاقات الاجتماعية وبدخولنا عالم اللغة الذي يقوم العقل بتركيبه في المستوى اللاواعي العميق نرى أنفسنا في لب ومركز حقيقة العلاقات الاجتماعية وأساسيات تنظيمها.

الدراسات السابقة:

ثمة دراسات كثيرة تناولت ما قدمه ستراس من فكر لغوي ودراسات أخرى تعمقت في البحث في المجالات البنيوية عنده لكن قلما نجد دراسة دقيقة ومفصلة عنت موضوع الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة لديه لكن ثمة دراسة بعنوان جدلية الطبيعة و الثقافة في الفكر الحديث(نحو تأصيل فلسفي) للباحث عامر شطارة نشرت في المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية، المجلد 11، العدد 1، 2018 ، تناقش هذه الدراسة الآلية التي تم من خلالها التعاطي مع الانسان من وجهة نظر طبيعية وأخرى ثقافية، بالإضافة إلى البحث عن كيفية الانتقال من الطبيعية إلى الثقافة و ارتدادات هذا الانتقال على الانسان.

مشكلة البحث:

يمكن لنا القول إننا قدمنا كلود ليفي ستراوس بطريقة تحليلية على الرغم من غنى الدراسات التي وجدت ذات الصلة بالموضوع الذي تم البحث والنقاش فيه، فقد قمنا بالتركيز على الربط الفكري بين مفهوم الرمز وعلاقته باللغة بمعناها الشمولي ليكون السؤال الرئيسي لهذا البحث والذي يحدد مشكلته هو: كيف استطاع الإنسان وفق تركيبته النفسية أن يتحول من كائن فطري بدائي إلى كائن ثقافي حضاري؟

إضافة إلى الإشكالية التي تطرح سؤالاً آخر لا يقل أهمية عن الأول هو: كيف تمت الحالة الاجتماعية بين البشر وتنظمت وفق إطار ثقافي؟

إن فهمنا لطبيعة وثقافة مجتمع ما وبالتالي الرابط الذي جعل الاجتماع ممكناً وفقاً لستراوس لا يمكن إلا من خلال فهمنا للغة هذا المجتمع أو تلك الجماعة والمقصود

باللغة هنا جملة النماذج والسلوكيات والمعتقدات الاجتماعية بما في ذلك الكلام، فالكلام ظاهرة مجتمعية مستقلة شأنها شأن مختلف باقي الظواهر، لأن اللغة حالة عاكسة لثقافة جماعة هنا وجماعة هناك.

أهمية البحث:

يمكن القول إن تركيز ستراوس انصبّ على طبيعة العقل البشري والآلية التي يعمل من خلالها، انطلاقاً من الدائرة الأصغر المتمثلة بعلاقته مع ذاته وفهمه لذاته وطبيعته، إلى الدائرة الأكبر وهي علاقته بمحيطه وبالآخر. لقد سلط ستراوس الضوء بوضوح على طبيعة العقل البشري اللاواعية، تلك المساحة التي تشكل فضاء احتمالات لا متناه، والنقيض الواعي منها والذي يمثل القائد والموجه للعمليات الكامنة داخل ساحة اللاوعي. إن أهمية البحث باعتقادنا تأتي من إصرار ستراوس على رصد العبقرية البشرية بالعودة إلى الحالة البدائية الفطرية والبحث عن القاعدة الأساسية لتشكل الثقافة والحضارة البشرية، وإن تتبع العبقرية البشرية من اللحظة الأولى التي أشرقت وأفاضت بسريان متدفق من التحولات الحضارية الهائلة أمر يضعنا موضع العارف بمفاتيح نشأة الثقافة الإنسانية وفي الوقت ذاته يمكّننا من استشراف المستقبل باحتمالاته الهائلة.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى قراءة أفكار ستراوس حول الآلية التي انتقل من خلالها الإنسان إلى ضفة الحضارة والكيفية التي تحول عبرها من الحالة الشمولية المتمثلة بالطبيعة العشوائية إلى الحالة النسبية المتمثلة بالثقافة المنظمة، بالإضافة إلى معرفة دور اللغة كحالة رمزية في هذه العملية التحولية باعتبارها الحامل الأساسي للثقافة.

الهدف الآخر والذي يشكل محور البحث الأساسي يتمثل في معرفة الخط الفاصل ما بين الطبيعة والثقافة، فعلى الرغم من ضبابية تلك الحالة الانتقالية برأي ستراوس وعدم وضوحها بشكل مباشر إلا أنه اعتبر أنه إن كان ثمة فصل ما بين القطبين فإنه يتمثل بظهور قانون التبادلية بين الجماعات البشرية الذي نحن بصدد مناقشته في هذا البحث.

منهجية البحث:

اعتمدنا في هذا البحث منهجية التحليل النقدي الذي يمكّننا من تقصّي المعاني والدلالات التي أراد ستراوس إيصالها من خلال تفكيكها إلى عناصر مختلفة وتحليلها بغرض فهم المقاصد الذي يسعى النص إلى إيصالها، وبالتالي الوصول إلى الغاية الأساسية والنتيجة النهائية حسب الرؤية والقراءة الستراوسية. منهج التحليل النقدي يفتح البحث على العديد من الاحتمالات التي يمكن لها أن توصلنا إلى الغاية المرجوة بالإضافة إلى أنها تغنيه بالآراء النقدية التي تفتح أفق التفكير بشكل أوسع.

وجوهر دراستنا هذه يقوم على مبدأ التبادل والذي هو بالأساس مبدأ مستلهم من عالم الاجتماع الفرنسي مارسيل موس خصوصا في كتاب الأخير **{محاولة في الهبة}** الذي يناقش فيه قانون التبادلية بإسهاب. وقبل أن ندخل في صلب مناقشتنا لهذه المواضيع نود أن نلفت إلى العناصر التي تسير وفقها هذه المقالة:

أولاً: بين الطبيعة والثقافة.

ثانياً: علاقة اللغة بالثقافة.

ثالثاً: التبادل والرمز.

رابعاً: قانون التبادلية كخط فاصل بين الطبيعة والثقافة.

أولاً بين الطبيعة والثقافة

إن جملة ما جمعه الإنسان من معارف ومعلومات من خلال احتكاكه المباشر بالطبيعة إضافة إلى السلوكيات التي تطورت بتطور تلك المعارف ومفرزات تلك السلوكيات من مؤسسات ومظاهر اجتماعية هي ما يمكن أن ندعوه ثقافة، فالثقافة من ضمن ذلك هي حالة مكتسبة ظاهرياً لكن ضمنياً يمكن أن نقول أن بذور الثقافة مودوعة في الإنسان فطرياً وكأن ثقافة الإنسان أمر محتوم عليه لابد له أن يتنقل عبرها كلما استدعى التطور ذلك خصوصاً وأن التطور أمر ملتصق بالإنسان دوناً عن باقي كائنات المعمورة هذا

يعني أن الثقافة أمر مخصوص بالإنسان فقط. يقول غليفورد غيرتز في هذا الصدد: "الثقافة كما يراها معظم الباحثين، هيِ شيء إنساني خاص، ينفرد به الجنس البشري من دون الأجناس الأخرى، وهي تشمل السلوك والأشياء المادية التي تصاحب السلوك"[1].

لقد عمدت الأنثروبولوجيا إلى دراسة الإنسان القديم والقبائل البدائية القديمة من خلال احتكاكها الفطري والمباشر بالطبيعة هادفة إلى معرفة البذور الأولى التي حدت بالبشرية إلى ذلك التحول نحو التمدن المتأطر بالمظاهر الاجتماعية المنمقة والمتراتبة وهذا ما أوضحه ستراوس بالقول: " تبدو الحضارة الغربية بمثابة التعبير المتقدم في تطور المجتمعات البشرية، كما تبدو المجموعات البدائية كناية عن بقايا خلّفتها مراحل سابقة يتكّفل تصنيفها المنطقي بالكشف عن سياق ظهور تلك المجتمعات عبر الزمن"[2].

يعتبر ليفي ستراوس أن للإنسان قدرة عقلية تأتي من أساس فطري طبيعي ولنقل غريزي، بمجرد تفعيل هذه القدرة في الحياة الخارجية يعني ظهور الثقافة مما يجعلنا نرى أن الطبيعة والثقافة عبارة عن سيستامين يسير الواحد بالتوازي مع الآخر وما اختلاف الثقافات وتنوعها وحتى تطورها من شكل إلى شكل آخر سوى حالة انعكاسية للقدرة الإنسانية الطبيعية.

من ناحية أخرى يرى ستراوس بأن الثقافة البشرية عبارة عن كليات فطرية موجودة على المستوى العميق من فكر الإنسان والآلية التي ساعدت على استنباطها كانت اللغة، إذ إن ظهور اللغة بالنسبة إلى ستراوس هو تحول من الحالة العاطفية إلى الحالة العاقلة أي إلى الثقافة، يقول سايمون كلارك بهذا الشأن: "المرور من الطبيعة إلى الثقافة مميزاً بالانتقال من العاطفي إلى العقلي"[3].

[1]-كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، ت: محمد بدوي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان. بيروت، 2009، ط:1، ص: 8.

[2]-كلود ليفي ستراوس، الإناسة البنيانية، ت: حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1995، ط:1، ص:13.

[3]- سايمون كلارك، أسس البنيوية نقد ليفي ستراوس والحركة البنيوية، ت: سعيد العليمي، دار بدائل، القاهرة، 2015، ط: 1، ص: 202.

إن التركيز في الدراسات والأبحاث على الإنسان القديم يعني أنه الموضوع الأهم والأجدر الذي لا بد من التعمق فيه لأنه يمثل بكل فعاليته البدائية وطقوسه وتقاليده حالة الانسجام الفطري والتناغم مع الطبيعة بشموليتها، بالمقابل فإن المؤشر الحقيقي الذي يقود إلى فهم الأنساق الثقافية المتمثلة بمختلف الظواهر الاجتماعية البشرية بالنسبة إلى ستراوس هو البحث عن الكليات الفطرية التي تمثل الدافع الطبيعي الذي يحرك العقل البشري باتجاه تشكيل الحالة الثقافية وفي الحقيقة إن تحليل الظواهر الثقافية دون الارتكاز إلى جذور طبيعية لا يمكن أن يؤدي إلى النتيجة المرجوة وهذا بالضبط ما يشكل جدلية الطبيعة والثقافة.

لكن من زاوية أخرى نستطيع أن نرى أنّ ستراوس يشكك في أمر التمييز ما بين الطبيعة والثقافة ويعتبر أنها حالة ليست سهلة على الإطلاق لأن البحث عن الجذور الفطرية أمر غامض فالإنسان مهما كان ضارباً في القدم فإنه غالباً ما كان يترك خلفه آثاراً ثقافية تدل على أسلافه، يشير ستراوس إلى أن "الإنسان الذي عاش في العصر الحجري الحديث (النيوليتي) لا يمكن اعتبار مرحلته مرحلة طبيعية فبالمقارنة مع أسلافه تتضح حالة ثقافية مغايرة الدليل صناعاته الحجرية، طقوس الجنائز بالإضافة إلى استخدامه لغة معينة"[1] .

بالمجمل يمكن لنا القول بالنسبة إلى ستراوس: إن الإنسان عبارة عن تركيبة متناغمة ما بين الحالة الفطرية وتداعيات البيئة المحيطة به وتأثيرها عليه بالإضافة إلى مخزونه الاجتماعي مما سلفه وإن دراسة أية ظاهرة ثقافية تستلزم بالفعل الجمع بين هذه الأقطاب والتوليف بينها ومراعاتها بشكل دقيق.

[1] - Lévi-Strauss, C. The Elementary Structure of Kinship,1949,Boston: Beacon Press, p . 4.

أين تنتهي الطبيعة وأين تبدأ الثقافة؟

في الحقيقة لا يمكن أبداً الجزم في هذه المسألة وتبيانها بوضوح بسبب جملة من المعيقات والغموض العميق الذي يحيط بالإنسان. حتى لو حاولنا أن نعزل سلوك معين بغية دراسته، إلا أن حالة العزل بحد ذاتها تعتبر أمراً ثقافياً. لكن من وجهة نظر ستراوس يمكن التمييز بين الثنائية (طبيعة/ثقافة) بمبدأ الشمولية والنسبية، فالطبيعة تتسم بالشمولية الكونية بالإضافة إلى العفوية والتلقائية التي تسيطر على أحداثها، بالمقابل فإن كل ما يخضع لمعيار ثابت هو حالة ثقافية وفي الوقت نفسه هو نسبي وخاص: "فكل ما يتصف بالكلية وبالضرورة عند الإنسان يمكن اعتباره راجعاً إلى الطبيعة، وعلى العكس من ذلك فكل ما يخضع لقاعدة اجتماعية ينتمي إلى نظام الثقافة"[1]. لكن يجتمع الدارسون في بنيوية ستراوس على أن ظهور اللغة المنطوقة يمكن له أن يحدد الخط الفاصل ما بين الطبيعة والثقافة والسؤال المطروح هنا: لماذا كانت اللغة تحديداً هي المفصل الحقيقي والحد الفاصل في تلك الثنائية؟

إن اللغة في اعتبار ستراوس لم تكن فقط اللسان أو حالة النطق، إنما قصد بها كل أساليب التواصل وكل وسائل التعبير عن هذا التواصل، في حال كان مع الطبيعة أو مع الآخر بما فيها أشد أنظمة التواصل تعقيداً والتي يمكن لها أن تستعين بأنماط وأنساق رمزية في بعض جوانبها وهي في رأيه: " أكثر مظاهر النظام الحضاري اكتمالاً، هذه المظاهر التي تشكل بصورة أو بأخرى أنساقاً".[2]

تعتمد البنيوية الستراوسية على اللسانيات ومناهجها اعتماد مركزياً في تحليلها لمختلف المظاهر والأنساق الاجتماعية ومعرفة بنية اللغة أساساً يقودنا إلى فكرة النسق المتشكل في الواقع الاجتماعي والذي يشكل في آن معاً الحالة الاجتماعية بحد ذاتها. إننا نسعى في الحقيقة إلى أن نبين أن الأنساق الاجتماعية هي بحد ذاتها أنساق لغوية مبنية على

[1]- عبد الرزاق الدواي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، دار الطليعة للدراسات والنشر، بيروت، 1992، ط: 1 ص: 85.

[2]- دفاتر فلسفية (نصوص مختارة) الطبيعة والثقافة، إعداد وترجمة: محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء. المغرب، 1991، ط:1، ص:26.

أساس رمزي والنموذج سيكون نسق التبادل بمعناه الرمزي والذي يعتبر عند ليفي ستراوس الخط الفاصل ما بين الطبيعة والثقافة.

ثانياً علاقة اللغة بالثقافة

إن البحث في أنظمة العلاقات اللغوية أشبه ما يكون بالبحث عن مصفوفات ذهنية ترسم ملامح و شكل واقع العلاقات الاجتماعية خصوصاً العلاقات القرابية، فلولا اللغة و مقاطع الصوت و العلاقات الناظمة لها ما كان ثمة إسقاط خارجي لأي نوع من أنواع العلاقات الاجتماعية و بدخولنا عالم اللغة الذي يقوم العقل البشري بتركيبه في المستوى اللاواعي العميق نرى أنفسنا في لب و مركزية حقيقة العلاقات الاجتماعية و أساسيات تنظيمها و كأننا دخلنا غرفة التحكم المركزية لمختلف مظاهر حياة الانسان الخارجية يقول ستراوس: "ثم إن أنظمة القرابة، مثل الأنظمة الفونولوجية يعدّها العقل على مستوى الفكر غير الواعي"[1]، و في مكان آخر يقول: "تنتقل الفونولوجيا من دراسة الظاهرات اللغوية الواعية إلى دراسة بنيتها التحتية اللاواعية "[2].

إن اللسان والصوت ناقلان لما في العقل وما في النفس ووسيلة تعبيرية عن ثقافة جماعة معينة ودليل على بنيتها النفسية، اللسان يعني كلام وإن كان عبارة عن جملة صوتية مركبة إلا أنه يربطنا بشكل مباشر بالعقلية الخاصة والموروث الثقافي الذي يشكل هوية الجماعة فاللسان كما وضحه فرديناند دو سوسير "نظام مسجل في الذاكرة المشتركة يمكن من إنتاج لفيظات لا متناهية وفهمها، والحديث مجموع اللفيظات التي أنجزت فعلا"[3].

سوسير يعتبر أن اللغة ظاهرة لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال دراسة الألسنة وهو في ذلك يشترك مع ليفي ستراوس، فالعلاقة ما بين اللسان واللغة علاقة وثيقة لأن النتائج التي يتوصل إليها الألسني هي نتائج تفسر الحالة الكلامية والخطابية، يجتمع كل من

2- ليفي ستراوس، كلود، الإناسة البنيانية، ت: حسن قبيسي، ص: 53.
3-المصدر نفسه، ص:52
1- مارتان، روبير: مدخل لفهم اللسانيات (إبستمولوجيا أولية لمجال علمي)، ت: عبد القادر المهيري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص: 65

اللسان واللغة في مجال واحد ليرصد لنا حالة الجماعة من جهة والحالة الاجتماعية للفرد من جهة أخرى وعلى مختلف الأصعدة.

لكن في جوهر مناقشتنا للعلاقة ما بين اللغة والثقافة يخيّل إلينا أننا من خلال البحث والتحليل بمقدورنا أن نجعل هذين الطرفين وحدة مدمجة أو أننا يمكن أن نستخلص القواسم المشتركة التي تخولنا إلغاء الأجزاء المتناقضة أو نغفل عن البحث فيها.

لكن الحقيقة عكس ذلك فنحن عندما نبحث في العلاقة بين مجالين لا يمكننا أن ندمج الواحد بالآخر في وحدة كلية إنما نلتمس تأثير كلا المجالين ببعضهما وماذا يقدم الواحد للآخر من عناصر داعمة. لقد طرح ستراوس جملة من الأسئلة المرتبطة بهذا الجانب من البحث "هل اللغة هي التي تفعل فعلها في الثقافة أم أن الثقافة هي التي تفعل في اللغة"[(1)].

واللافت هنا أن ستراوس لم يغفل عن أمر غاية في الأهمية ونحن نعاين البحث والنقاش في هذين القطبين أننا علينا أن ندرس تنامي وتطور كلا من اللغة والثقافة بالتوازي بمعزل عن شوائب اللغات الدخيلة، ففي بعض المجتمعات لوحظ تبني أفرادها للغات غير اللغات الأصلية الأمر الذي أبعد الثقافة عن أصالتها التي نحن في صدد البحث عنها يقول: "ففي النقطة التي نحن فيها الآن، نستطيع أن نقتصر على الحالات المخصوصة التي تطورت فيها اللغة والثقافة جنبا إلى جنب خلال زمن معين بمعزل عن تدخل ملحوظ للعوامل الخارجية "[(2)].

يبني ستراوس استنتاجاته في هذا الحقل على ركائز ثلاث:

1-علاقة لغة معينة بثقافة معينة لأن دراسة ثقافة ما تستلزم دراسة لغة هذه الثقافة.

2-علاقة الكلام بالثقافة بشكل أوسع ويشير هنا إلى الكيفية التي استخدم فيها البدائيون الكلام بطريقة مقتضبة ومختصرة على مواقف وظروف معينة مقارنة مع شعوب العالم

2- ليفي ستراووس، كلود:الإناسة البنيانية، ص: 84
3-المصدر نفسه، ص:85

المعاصر الذي لا يترك فرصة إلا ويعبر عنها بتعليق أو تساؤل أو وصف أو تبرير.. الخ.

وكأنه يلفت نظرنا إلى إساءة استخدام الكلام في عالمنا المعاصر أو ربما أراد أن يشير إلى الهدوء الملازم للمجتمعات البدائية مقارنة بصخب وضجيج عوالم اليوم فهو يقول فيما يخص استخدام البدائيون للكلام: "أن التعبيرات اللفظية كثيرا ما تقتصر فيها على بعض الظروف المعلومة فلا يتكلم المرء خارج هذه الظروف إلا بمقدار"[1].

3-علاقة كل من علم اللغة بعلم الإناسة.

إذا فإن فهمنا لطبيعة وثقافة مجتمع ما بالنسبة إلى ستراوس لا يمكن إلا من خلال فهمنا للغة هذا المجتمع أو تلك الجماعة والمقصود باللغة هنا جملة الأنساق والنماذج والسلوكيات والمعتقدات الاجتماعية بما في ذلك الكلام فالكلام ظاهرة مجتمعية مستقلة شأنها شأن مختلف باقي الظواهر لأن اللغة حالة عاكسة لثقافة جماعة هنا وجماعة هناك.

سؤال يمكن لنا أن نتوقف عنده في هذا الصدد وهو:

لماذا قام ستراوس بإدخال علوم الألسنة في أبحاثه الإناسية؟

إن تحليل البنى اللغوية والبحث الدقيق في علوم الألسنة يجعلنا نفهم مختلف السلوكيات الاجتماعية التي ولدتها جماعة من الجماعات وبالتالي فهم ثقافتها يعني أننا بالمعنى الأكاديمي المجرد نفهم وظيفة اللغة الرمزية داخل الجماعات، إضافة إلى تقريب التمظهرات والتجسدات المجتمعية التي في الظاهر تبدو بعيدة، بمعنى آخر إيجاد الأساسيات المشتركة بين مختلف الجماعات و إن كانت متباعدة جغرافيا يقول ستراوس في هذا الشأن: "المجتمعات البشرية ليست أبدا وحيدة وعندما تبدو في أقصى درجات

1-المصدر السابق نفسه، ص: 82

الانفصال فإن ذلك يأخذ أيضاً شكل الكتل أو المجموعات "[1]، و النتيجة الأساسية التي خلص إليها ستراوس أن اللغة والثقافة صيغ متوازية يولدها **الذهن البشري** و يحكم العلاقة الجدلية القائمة بينهما.

فهل يعترف ستراوس بناء على ذلك ويؤكد وجود علاقة كاملة المستويات بين اللغة والثقافة؟

في الحقيقة ينحو ستراوس في هذا الخصوص منحى وسطي إذ لا ينفي العلاقة كما أنه لا يقول بأنها علاقة تتداخل فيها المستويات كافة إنما ثمة بعض الجوانب التي ينبغي البحث عنها واكتشافها وهنا تقع الإشكالية لأنه قد يتساءل أحدنا عن الغاية التي يحققها اكتشاف أوجه وجوانب العلاقة ما بين اللغة–الكلام والثقافة على بعض المستويات؟

لقد صُيّرت العلوم جميعها بمختلف تفرعاتها لتكون في خدمة الانسان وعلى مستوى أعمق وجدت العلوم لمعرفة الإنسان بحد ذاته لذلك يرى ستراوس أن البحث عن الأماكن التي تعتلق فيها الثقافة باللغة يمكننا من الكشف **عما يدفع ويحرك الذهن البشري.**

وإن معرفة ما الذي يقصده ستراوس بالذهن البشري يمكننا من تكوين صورة أوضح عن الحالة التي يتعامل بها مع اللغة لنكون أمام عنوان فرعي ضمن هذا المحور لكنه جوهري في نفس الوقت وهو **توليد الذهن البشري للغة وعلاقة ذلك بالجانب النفسي.**

بمكنتنا أن نعتبر أن اللغة عبارة عن سلسلة معرفية مكتسبة تأخذ خصائصها و ميزاتها و طبائعها و حالتها النفسية من البيئة لكنها بمعزل عن الدماغ البشري لا يمكن أن تأخذ هذه الهوية أو هذا التعريف، فالذهن البشري يتعامل مع اللغة بطريقة خاصة، يرى نعوم تشومسكي أن الدماغ يمتلك **ملكة لغوية** لنقل بطريقة أبسط أن الدماغ مقسم إلى أقسام كل منها يحتفظ بملف معيّن يعالجه و يخزنه حسب المادة الخارجية التي يتلقاها من البيئة المحيطة، واحد من هذه الملفات هو الملف اللغوي الفطري يقول تشومسكي

1- ليفي ستروس،كلود، العرق والتاريخ، ت: سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، ص: 12.

"فالعقل\الدماغ الانساني نظام معقد يتدخل في تركيبه أجزاء متفاعلة متعددة، أحدها الجزء الذي يمكن أن نسميه بالملكة اللغوية"[1].

دماغ الإنسان يتعامل مع البيئة المحيطة به وفقا لتلك الملكة بطريقة انتقائية، حيث تربط الأحداث بصور وتقوم بترجمتها وفقاً للغة التي يتعامل بها أبناء البيئة الواحدة و ذلك كله يتم في مرحلة مبكرة من عمر الانسان بالإضافة إلى الخصائص النفسية التي تفرضها تلك الوقائع والأحداث والتي من شأنها ليس فقط أن تكوَن الأنساق اللغوية الكلامية إنما أيضاً تصحبها بنبرة صوتية خاصة وفقاً للشعور المرافق للحدث الخاص بكلمة ما عندها يرى تشومسكي أن اللغة تصبح "بعد ذلك جزء من العقل"[2].

بالممارسة والتكرار يحتفظ باللغة وما يرافقها من مشاعر وصيغ نفسية وتراكيب ضمن الملكة اللغوية ويصبح ملف يمكن استخدامه بطريقة لا شعورية عندما يتطلب الأمر فتشومسكي يعرف اللغة ويربطها بالدماغ على النحو التالي: "اللغة نظام معقد من نوع مخصوص يتميز بخصائص محدّدة محكومة بطبيعة العقل \الدماغ"[3].

نحن نناقش هنا كيفية تعامل الذهن البشري مع اللغة على المستوى الفردي لكننا إذا أخذنا خطوة إلى الوراء ونظرنا إلى لغة معينة من مجمل اللغات وجدنا أن اللغة الخاصة بجماعة محددة تشكل ظاهرة اجتماعية ونسق رمزي خاص بالجماعة نفسها دونا عن جماعة أخرى أي أن اللغة هي واجهة الجماعة الثقافية.

رجوعاً إلى ستراوس الذي يعتبر أن (اللغة\الكلام) شرطاً من شروط الثقافة لأنه بواسطة اللغة يكتسب الفرد ويرث ثقافة قومه ويورثها لأبنائه، يرى أن الكلام خاصية تلتقط ركائز وأساسيات البنى الثقافية لا بل تتفاعل معها على مختلف الأصعدة.

1- تشومسكي، نعوم: اللغة ومشكلات المعرفة، ت: حمزة بن قبلان المزيني، دار توبقال، الدار البيضاء –المغرب، 1990، ص: 61.
2-المرجع نفسه، ص: 62.
3-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

بمقدورنا أن نلخص ذلك كله وفقاً لمعادلة أطرافها تشكل عناصر أساسية لا يمكن إغفال أو تجاهل أياً منها:

اللغة + الذهن البشري = ثقافة

فالذهن البشري هو الفضاء الذي احتوى اللغة لأن اللغة خاصية بشرية دوناً عن باقي الكائنات وإن كانت هذه الأخيرة قد استحدثت نوع من أساليب التواصل الخاصة بها إلا أنها لم تستطع أن ترقى إلى مستوى العقل البشري في امتلاكه ملكة اللغة الفطرية لأن اللغة حسب تشومسكي "ليست نظاماً للاتصال وحسب فنحن نستعمل اللغة مثلا للتعبير عن الفكر والإنشاء والعلاقات الشخصية من غير اهتمام خاص بالاتصال كما نستعملها في اللعب وفي أغراض إنسانية متعددة"[1].

يمكن أن نلاحظ أن الثقافة البشرية على امتداد الزمن تتفرع في اتجاهين (شاقولي وأفقي)، الأول يتمثل بعلاقة الإنسان بالغيبيات والميتافيزيقيا يمكن أن نقول إنه متمثل بالفكر الديني والثاني هو اتجاه الفكر الحسي الذي يخبرنا عن الطبيعة الحيوانية الموجودة في الإنسان وبالمجمل هي طبيعة الفكر الانساني التي بإمكاننا الآن أن نعتبرها طبيعة فكر رمزية بحتة محكومة باللغة واستدلالاتها.

لم يكن ستراوس ألسني لكنه أصّر على أهمية الدور الذي يضيفه علم الألسنة ومناهج علماؤها على فهم الانسان من خلال مظاهر اللغة، إننا الآن على مشارف وعتبات المعنى المحكوم بثلاثة عناصر أساسية (الرمز، الموضوع، العلاقة بينهما) لنصبح مباشرة أمام علاقة أخرى متمثلة بالرمز ومن يستخدم الرمز.

إننا مع اللغة نتقابل مع الآخر الذي هو النقيض المقابل لنا والذي يستخدمه الفكر ويسوقه على أنه رمز لكن من الناحية النظرية يمكن أن نقول لا وجود للرمز إنما يوجد الدليل

الذي يمكن أن يعتبر المصطلح الأعم والأوفى للإشارة إلى المعنى إلا أن الدليل بمجرد أن يسقط في الممارسة العملية يتحول إلى رمز ويطعم كل دليل برموز لا حصر لها "[1].

نعود مرة أخرى إلى أسلوب التفكير عند البدائيين وطريقة تعاملهم مع اللغة يقول تزيفتان تودوروف: "أما الإنسان البدائي فقد كان مضطراً– بالنظر إلى طبيعة لغته – على الدوام إلى استعمال ألفاظ وعبارات استعمالا مجازيا كان عليه أن يعبر عن أفكاره بلغة الشعر "[2].

لكننا نقول إن الاستعمالات المجازية للغة لم تكن شعراً فقط لقد كانت أيضا أساطير وترانيم رمزية مجازية عبرت عن ذهنية البدائيين وآلية إيصالهم للمعنى المقرون بعلاقة الدال بالمدلول التي سبق وأشرنا في الفصل السابق إلى أن ستراوس قام بتوحيد تلك العلاقة بردها إلى طبيعة الفكر الرمزي عند البشر بل واعتبرها شرط من شروطه ونود أن نشير إلى أن تلك العلاقة والتي في جوهرها هي علاقة رمزية تدخل في صلب مفهوم وطبيعة اللغة.

بهذا النقاش نكون قد بينا ووضحنا معادلة الأنساق التي تمت الإشارة إليها في بداية هذا الجزء من الفصل إننا أمام بنية متمثلة بالرموز وعلاقة متمثلة بعلاقة الرمز باللغة وبالتالي نحن أمام جملة من الأنساق الاجتماعية المختلفة التي تجسدت في الواقع الخارجي.

لقد أشرنا في بداية هذا المحور بأننا نريد أن نوضح جملة من المفاهيم التي تعتبر مفاتيح أساسية لهذا الفصل وجملة من العلاقات المهمة التي توضح غايتنا وهدفنا وقبل أن ندخل في الشق الثاني من هذه الدراسة لا ضير في تلخيص ما قد تم مناقشته:

لقد بينا أن الذهن البشري هو حامل الثقافة مجسداً إياها في الواقع الخارجي من خلال اللغة و بينا أن اللغة هي جملة التمظهرات الاجتماعية و أن الكلام هو نسق من أنساق

1- تودوروف، تزفيتان: نظريات في الرمز، ت: محمد الزكراوي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،2012، ص: 358

1-المرجع نفسه، ص: 371.

الحياة الاجتماعية، ظاهرة لا تختلف عن أي ظاهرة أخرى، ثم وضحنا أهمية إدخال علوم الألسنة في الحقل الإناسي لأن ذلك وفقا لستراوس يجعلنا قادرين على الولوج في عمق البنى الكلامية و ما تحمله من تراكيب نفسية مصاحبة و بالتالي فإن معرفة الحالة الثقافية التي تخص جماعة من الجماعات، لقد أردنا أيضاً أن نبين أن الثقافة هي عبارة عن نسق رمزي مخزن في لاوعي الفرد و بالتالي موروث جماعي ينتقل عن طريق اللغة و الكلام من جيل إلى جيل أخر.

من ناحية أخرى سلطنا ضوء شديد التركيز على رؤية ستراوس للعلاقة ما بين اللغة والثقافة لمعرفة أن الغرض من تلك الحالة العلائقية معرفة الدوافع التي تحرك الذهن البشري فنخلص إلى أن الذهن البشري يمتلك ملف لغوي فطري من شأنه أن يفرقه عن سائر الكائنات الأخرى وهو بهذه الملكة لا يخزن فقط البنى اللغوية إنما يخزن معها أيضاً مجمل الحالات النفسية و الشعورية ومجمل الأحداث المرافقة لتلك التركيبات اللغوية وهذا ما سنوضحه من خلال معالجة ستراوس للبنى الكلامية من خلال أنساق القرابة والتي توضح ما قد توصلنا إليه سابقا بأن اللغة نسق رمزي لاواعي خاص بجماعة محددة دوناً عن جماعة أخر.

كيف عالج ليفي ستراوس اللغة وكيف استطاع أن يحاكي بها الأنثروبولوجيا البنيوية؟

"رأى ستراس أن الألسنية تطبق المنهج البنيوي تطبيقا ناجحاً "[1] فقد دخل عالم الألسنة عن طريق رومان جاكسبون الذي تحدث عن الفونيم على أنه الوحدة الصوتية الأصغر وهو "عنصر دال وفي الوقت نفسه لا يحمل أية دلالة"[2].

فاللغة تتكون من عناصر صوتية بسيطة تتحد فيما بينها لتشكل المعاني دون أن يكون لكل عنصر من هذه العناصر أي معنى منفرد، كذلك أنساق القرابة تتألف من عناصر

1-بركة، فاطمة الطبال: النظرية الألسنية عند رومان جاكسون، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1993،ص:131

2-المرجع نفسه، ص:131

بسيطة (زوج–زوجة) (أخ–أخت) (ابن –ابنة) ثم تأتي عائلة طرفي الزواج لتتخذ أسماءها ومعانيها النفسية من خلال تأليفها لنسق عائلي ومن ثم جماعة.

في معرض مقابلتنا بين ليفي ستراوس وياكبسون أو لنقل بين الإنتربولوجيا والألسنة وهي مقابلة تعتبر بالنسبة للبحث نوع من التوقف العرضي لمزيد من التوسع وفهم العقلية الستراوسية التي من جهة حاولت أن تكتشف لغويّاً الأسس اللاواعية للحالة الرمزية و من جهة أخرى حاولت الإشارة إلى أن أنظمة القرابة وأنظمة اللغة تتقاطع في نقطة مشتركة هي حالة التواصل و بالتالي يمكن تطبيق المنهج البنيوي على كلا النظامين، يقول كلارك في هذا الصدد: "إن فكرة النماذج البنيوية التي طورتها اللسانيات، وبالتوسع بواسطة الأنتربولوجيا، تحيلنا مرة أخرى إلى اللاوعي، أو إلى بنية العقل الإنساني "[1].

يرى ستراوس أن الترتيب الذي يسير به نظام العائلة عملية شبيهة بعملية التواصل اللغوي، وكما أشرنا سابقا إلى أن مبدأ التبادلية يعتبر نسق تواصلي لغوي رمزي كذلك الآن نضع نسق العائلة ضمن الخانة نفسها.

وحديثنا عن ظواهر الزواج القائمة على مبدأ تبادلية النساء يعني أننا نكون مباشرة أمام الحالة المقابلة لها المتمثلة بحظر سفاح القربى الذي وسع ستراوس تطبيقه للمنهج البنيوي اللغوي ليشمل هذا النسق أيضا حيث يقيم مقابلة ما بين الفونيم الوحدة الصوتية الأصغر وتحريم زنا القرابة يقول: "إن منع عشق المحارم هو كالفونيم تماماً إنه وسيلة دون دلالة خاصة بها ولا تعطي دلالات إلا إذا ظهرت كحلقة وصل بين ميدانين "[2].

لكن الأهم بالنسبة لهذا البحث وللسياق العام الذي يسير ضمنه هو كيف استطاعت اللغة أن تؤدي دوراً مهماً في فهم التفاعلية الرمزية وعلاقتها الخاصة بالذهن البشري اللاواعي لذلك لا بد أن نقف قليلاً عند هذه العلاقة حتى ندرك دورها في تفعيل الرموز ضمن الوعي الجمعي العام وبالتالي فهم الكيفية التي تتعامل الجماعة من خلالها مع الرموز من خلال اللغة.

3-كلارك، سايمون، أسس البنيوية، ص: 156
1-بركة، فاطمة طبال، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، ص: 132.

ثالثاً التبادل والرمز

قبل أن ندخل في فلسفة التبادل كما تناولها ستراوس لابد من الإشارة إلى علاقة اللغة بالرمز باعتبار أن اللغة تظهر بوصفها جملة من الإشارات. إن هدف اللغة الأساسي هو التواصل لأنها بالفعل عبارة عن أداة عقلية تعمل بتقنية عالية الدقة لبلوغ هذا الهدف، فاللغة تربط بين الحسي والنفسي، أي العالم الخارجي المادي وعالم الإنسان النفسي الداخلي وكيفية تعاطيه مع عالمه المادي المحيط به.

يرى ستراوس أن أي نسق اجتماعي تواصلي هو لغة قائمة على جملة من الرموز الخاصة بجماعة معينة، والتي لا يمكن فهمها إلا ضمن سياقها الاجتماعي وعندما نقول رمز فنحن نكون مباشرة أمام المعنى لأن الرمز حمولة مثقلة بالمعاني المخصوصة بحالة اجتماعية معينة. وجملة الطقوس والعادات والتقاليد وكل المظاهر الاجتماعية بما فيها الأساطير، الدين والفنون هي أنساق تواصلية لغوية رمزية "الرموز وسائل للتصنيف الاجتماعي، والتي تميز بين الفئات المتنوعة للموضوعات أو الأشخاص أو الأفعال، وتحافظ عليهم منفصلين"[1]في الحقيقة إن المعنى الرمزي يمكن أن يشتق من العلاقة بين العناصر التي تؤلف النسق الاجتماعي بغض النظر عن نوع النسق (إن كانت أنساق القرابة أو التبادل أو أي نسق اجتماعي آخر).

ومن وجهة نظر أخرى يمكن لنا أن نقول إن نسق التبادل يفضي بصورة مباشرة إلى نسق القرابة كون التبادل في البداية كان قائماً على تبادل النساء ضمن الجماعات إن كان تبادلاً داخلياً بين القبيلة الواحدة أو تبادلاً خارجياً بين قبيلتين. ومن هنا تأتي أهمية التبادل كنسق تواصلي رمزي اعتبره ستراوس الخط الفاصل بين الطبيعة والثقافة والذي يعتبر صلب دراستنا في هذه المقالة.

[1]-توماس هايلاند إيركسون& فين سيفرت نيلسون تاريخ النظرية الأنثروبولوجية، ت: لاهاي عبد الحسن، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2013، ط: 1، ص: 150.

يمكننا أن نفهم الحالة التبادلية باعتبارها نسق لغوي رمزي تواصلي من خلال تناول ستراوس لموضوع تبادل الهدية الذي استلهمه من مارسيل موس خصوصاً في كتابه **مقالة في الهبة**، والقائم على التزامات ثلاث: (العطاء والاستلام والرد) المؤطرة بإطار رمزي مشحون عاطفياً بقوة غيبية يدعوها موس ***المانا***: "إن في الأشياء المتبادلة خلال البوتلاتش قوة تفرض على الهدايا الحركة والدوران وأن تهدى وترد".[1]

يرى ستراوس أن القوة التي تجبر الهدايا على أن تكون متبادلة والتي دعاها موس ***مانا*** تعتبر دالاً عائماً ليس له معنى في حد ذاته إنما يحتمل أن يتخذ أي معنى يضاف له، وبالتالي يصبح تبادل الهدية مبدأ يمكن إحالته إلى الفكر الرمزي بعيداً عن إسناده إلى تلك الحالة الغيبية الميتافيزيقية المتمثلة بقوة مانا.

لقد أراد ستراوس أن يتخذ مساراً عقلانياً أكثر من كونه حالة صوفية عاطفية، لذلك وجد أن الحقيقة كامنة في الصياغات العقلية اللاواعية، لأن فكرة مانا لا تعطينا التفسير النهائي لعميلة التبادل. إننا ندرك من خلال مانا ضرورة كامنة غير واعية، ومن هنا اتخذت قيمة رمزية فارغة تماماً (صفر)، وهذا في الحقيقة ما يجعلنا نفهم التبادل على أنه نسق رمزي تواصلي.

إننا هنا نجد أنفسنا أمام حالة اختزال واضحة للسياقات الرمزية إلى صيغة عقلية لا واعية، فالتوليف الذي قام به ستراوس هنا هو قلب عملية البحث من الخارج إلى الداخل؛ الداخل المتمثل بساحة اللاوعي المتضمنة للبنى الرمزية والتي كانت الأساس الذي رسم وشكل مختلف الظواهر والصيغ الاجتماعية، فالبحث هنا ضمن الداخل اللاواعي يقودنا مباشرة إلى فهم وإدراك الحالة الاجتماعية الكلية من جهة والخاصة بكل جماعة بشرية من جهة أخرى دون أن نكون بحاجة إلى الاستناد لقوى غيبية غير واضحة وليس لها أساس عقلي وعلمي.

[1]- موس، مارسيل: بحث في الهبة (شكل التبادل وعلته في المجتمعات القديمة)، ت: المولدي الأحمر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت. لبنان، 2011، ط: 1، ص: 143.

بمكنتنا هنا تحديداً أن نلاحظ أن ستراوس قد جعل الإنسان المحور الأساسي في الدراسات والمرجع الذي لابد منه لفهم أية ظاهرة اجتماعية ثقافية، باحتوائه ضمن البنى الرمزية اللاواعية على الاحتمالات اللامحدودة واللامتناهية من إمكانيات تشكيل وتصدير مختلف ظواهر الحياة المادية وبالتالي الثقافية.

يتقاطع حقل اللغة مع كل ما ذكرناه سابقاً، لأننا من خلال اللغة نفهم منطق الرمز، وبُناه النفسية وآثاره في الحياة الاجتماعية. وعبر الرمز نستطيع أن نصل إلى البنى العميقة اللاواعية التي تشكل أساس الظواهر الاجتماعية لأنها نماذج واعية فقيرة بالمعنى ضبابية تخفي خلفها البنى اللاواعية التي تحمل المعاني الرمزية وفهم الوظيفة الرمزية لتلك النماذج ومنها نموذج التبادل مرتبط تمام الارتباط بفهم البنية.

باختصار: إن اللاوعي حسب ستراوس هو نظام رمزي، والرموز أكثر واقعية وحقيقية مما ترمز إليه، لأن الرمز حالة اختزالية للمعاني المؤولة. وبناء عليه تصبح الحياة الاجتماعية عبارة عن أنساق رمزية مختزلة أساسا في اللاوعي، ونسق التبادل هو النسق والنموذج الأبرز الذي يوضح ذلك لأننا نبحث فيه باعتباره نسق رمزي وظاهرة اجتماعية يمكن اختزاله إلى ساحة اللاوعي من خلال بعده الرمزي التواصلي.

ثالثاً قانون التبادلية كخط فاصل بين الطبيعة والثقافة

إن وظيفة التبادل هي جعل الاجتماع ممكناً بالإضافة إلى قدرته على دمج الفرد بالمجتمع، وهذا النموذج التواصلي يكشف عن البنية الأساسية داخل أي جماعة لأنه مربوط بلاوعي الفرد باعتبار أنه توليف معطى للفكر الرمزي. تتخذ هذه الدراسة بعدين أساسين حتى نصل من خلالها للنقطة الأساسية المتمثلة بالفصل بين الطبيعة والثقافة.

البعد الأول: عملية تبادل النساء والوجه المقابل المتمثل بحظر سفاح القرابة.

البعد الثاني: عمليتي الاستلام والعطاء باعتبارهما أقطاب أساسية في عملية التبادل والتي يصفهما ستراوس بأنهما عبارة عن لحظتي إيقاع مزدوجة لا تتواجد الأولى بمعزل عن الثانية وإن اختلفت درجات قياسها في الحالة الطبيعية عنها في الحالة الثقافية، يقول

سايمون كلارك في هذا الصدد: "كل ما يقصد بالتبادل هو أن كل العلاقات الاجتماعية تبادلية بمعنى أن الإنسان سوف يتنازل عن شيء للمجتمع إذا قدم له المجتمع شيئا بالمقابل"[1].

والسؤال الذي يمكن طرحه هنا: كيف يمكن أن تظهر العلاقات الاجتماعية باختلاف مظاهرها أنها شكل من أشكال التبادل؟ إن النموذج الأهم الذي بإمكانه أن يقدم الإجابة الدقيقة هو نموذج تبادل النساء، فالرجال يتبادلون النساء فيما بينهم تبادلاً داخلياً، أي ضمن القبيلة أو الجماعة الواحدة أو تبادلاً خارجياً في جماعتين متباعدتين جغرافياً وفق قانون الزواج، لكن الزواج لا يظهر كعلاقة اجتماعية عند الجماعة على أنه حالة تبادلية إنما وكما أشرنا سابقاً يظهر وكأنه نسق اجتماعي واعي يخفي خلفه معرفة لا واعية من قبل الجماعة على أنها حالة تبادلية وحاجة للأمان، وبناء على ذلك يمكن أن نقيس أية علاقة اجتماعية أخرى تقترض تقديم تنازل أو تضحية أنها وبشكل مبطن وغير واع علاقة تبادلية. إن ستراوس هنا ينحو منحى فرويدي في تقديمه لهذه الفرضية على مبدأ التحليل النفسي، فالمحلل دائماً ما يبحث عن المعنى الضبابي المختبئ في ساحات اللاوعي، لكن سايمون كلارك يرى أن ليفي ستراوس "لا يقدم لنا وسيلة للوصول للمعنى اللاواعي للعلاقات الاجتماعية التي يصفها"[2]، لكن وبمعزل عن هذا النقد الموجه له يتضح لنا أن تبادل النساء يمثل العلاقة الأساسية في المجتمع والتي تتجلى بوضوح في ظاهرة الزواج الخارجي.

كنا قد أسلفنا أن مبدأ التبادلية يقوم على ازدواجية العطاء والاستلام، والواضح هنا أن الحالة التي يلتزم بها رجال جماعة معية بتقديم النساء لجماعة أخرى هي حالة التزام تقتضي بالضرورة من الآخرين تقديم قيمة بديلة، وهذا يمثل صورة واضحة لدورة حياة كاملة قائمة على التبادل جوهرها علاقة الزواج بصورته اللاواعية (تبادل النساء).

[1]- كلارك، سايمون: أسس البنيوية نقد ليفي ستراوس والحركة البنيوية، ص: 70.
[2]- المرجع نفسه، ص: 71.

إن حالة التخلي عن شيء ما يقابلها حالة عرض من طرف آخر للحصول على شيء بديل وهذا ما قصده مارسيل موس بالمانا، أي تلك القوة الجبرية على الاستلام والرد التي وجدها ستراوس حالة يمكن الاعتراض عليها باعتبارها مرد ميتافيزيقي ومن ثم أحالها إلى الفكر اللاواعي الرمزي إذاً إن فكرة أو "إمكانية التبادل كما تفهم في نظرية ستراوس العامة هي سلفاً متضمنة في مفهوم العلاقة الاجتماعية"[1].

يتفرع عن تنظيم الزواج أنظمة اجتماعية أخرى هي أنظمة القرابة التي يعتبرها ستراوس عبارة عن افتراضات عقلية فقط لا علاقة لها بالنسب البيولوجي وهذا ما وضحه بشكل مفصل في كتابه **البنى الأولية للقرابة**، وما يهمنا هنا هي الكيفية التي يضعنا من خلالها ستراوس بشكل ماشر وغير مباشر أمام قضية تحريم إتيان المحارم التي تظهر جنباً إلى جنب مع قاعدة الزواج وعلى الرغم من صعوبة تحديد الأنساب بالنسبة للأجداد الغارقين في القدم لأنه " لوحظ في كثير من الأحيان أن العديد من الأنظمة القانونية المؤقتة أغفلت تسجيل الأجداد بين الدرجات المحظورة"[2]، إلا أن اللافت وحسب ستراوس أنه "لا يتم التعبير عن التحريم دائماً من حيث درجة القرابة الحقيقة، لكنه يشير إلى الأفراد الذين يستخدمون مصطلحات معينة في مخاطبة بعضهم البعض"[3]، فالمحدد هنا هو العلاقة الاجتماعية أكثر من كونها تحديداً من علاقة بيولوجية.

يرى ستراوس وبشكل عام أن حظر سفاح القرابة هو حالة تمثل معبر للنقلة من حقيقة القرابة الطبيعية إلى حقيقة التحالف الثقافي مبنياً بالأساس على التبادل الذي شكل الركيزة الأولى للزواج يقول: "ما يميز الطبيعة أنها تستطيع أن تعطي فقط ما تم استلامه.... وفي مجال الثقافة يتلقى الفرد دائماً أكثر مما يعطي ويعطي أكثر مما يأخذ"[4].

إن الطبيعة تطلب الزواج وبشكل ملح، لكن دون حدود ودون تقييدات أو حتى تحديد للهويات بين الوالدين أو الزوجين، أي أن الطبيعة تحاول تأكيد القانون بمعزل عن

[1]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[2] - Lévi-Strauss, C. The Elementary Structure of Kinship, p. 30.
[3] -Ibid, P.30
[4]- Ibid, P.31

محتويات هذا القانون، فالعلاقة بين الذكر والأنثى علاقة محددة بالصدفة البحتة أو أنها متروكة لاحتمالات عشوائية على عكس علاقة الطفل بوالديه التي تحددها طبيعة الوالدين. بالمقابل نجد أن الثقافة تحاول أن تضع الكلمة الأخيرة والفصل في هذا الأمر، فالثقافة دائما ما تكون في حالة تربص لتعسفية الطبيعة. لقد عملت الثقافة على تحديد القاعدة الأساسية والنظام الدقيق الذي حدد منع سفاح القربة ونظّم بالتالي الزواج.

في الدراسات التي أجريت على قرود الشمبانزي والتي حياتها الغريزية أقرب ما يكون لحياة الإنسان وجد أن هذه الحيوانات ليس لها أي تمييز جنسي بين أقاربها البيولوجيين لكن الألفة بين أفراد الجماعة الواحدة تقلل الرغبة الجنسية، فاعتبر الباحثون أن الاصل الحقيقي للنظر هو الانتقال من الألفة إلى النفور إلى أن أصبح حالة معممة. يقول ليفي ستراوس: "تتضح هذه المشكلة عندما يتم الاعتراف بعدم اكتراث الطبيعة بأساليب العلاقات بين الجنسين، أو اللامبالاة التي شهدتها الدراسة الكاملة للحياة الحيوانية لأن التحالف هو بالتحديد المفصل، أو بالأحرى الدرجة التي يكون فيها المفصل مثبت، تفرض الطبيعة التحالف دون أن تحدده وما إن تستقبله الثقافة حتى تحدد طرائقه".[1]

النتائج والمناقشة:

يتضح لنا مما سبق:

أن ستراوس ومن خلال المنهج البنيوي يؤكد على فطرية الحالة التواصلية بين الأفراد والتي أسست مختلف الأنساق الاجتماعية الواعية لكنه ردها إلى أساس لا واع تكمن فيه بذور وبنى تلك التأسيسات الاجتماعية، لقد جعل ستراوس هذه المساحة اللاواعية المبدأ الرئيسي الذي انطلقت منه تجليات الثقافة وهو كما استطعنا أن نستنتج عبارة عن فضاء مليء بالرموز التي أسقطها الإنسان في الواقع الخارجي من خلال احتكاكه مع الطبيعة بشكل مباشر وغير مباشر، واستطاع عبر هذا التواصل أن يعالج ويجسد تلك الرموز بأساليب وتجليات لا متناهية. لقد أثبت ستراوس من خلال هذه المعالجة وحدة العقل البشري لدرجة أنه قام بمطابقة هذه الطبيعة البشرية مع ما نراه من تنوع واختلاف في مظاهر الثقافة.

[1]-Ibid, P. 33.

الاستنتاجات والتوصيات:

عندما بحث ستراوس عن البنى الأساسية التي شكلت الواقع الاجتماعي وجد نفسه أمام البنى الرمزية اللاواعية وذهب إلى أن كل الظواهر الاجتماعية الواعية ترتكز على بنى رمزية لا واعية وهي بطبيعة الحال وفق المنظور الستراوسي بنى لغوية أيضاً يترتب على ذلك جملة من التوصيات الخاصة في هذا البحث:

*أن أي شكل اجتماعي صنعه الإنسان هو شكل من أشكال اللغة الرمزية المختزلة في ساحة اللاوعي.

*إن المنهج البنيوي يؤكد على فطرية الحالة التواصلية بين الأفراد التي أسست مختلف الأنساق الاجتماعية الواعية لكن في جذورها ثمة أساس لا واع لها تكمن فيه بذور وبنى تلك التأسيسات الاجتماعية.

*إن عملية التواصل بين الإنسان والطبيعة هي عبارة عن عملية رمزية خالصة، مثال على ذلك الحالة الطوطمية عند الشعوب البدائية، حيث يعتبر الطوطم حالة تفعيلية للعلاقة الصامتة بين الانسان والطبيعة أو لنقل الإسقاط العملي للرمز.

*إن الذهن البشري هو الفضاء الذي احتوى اللغة وبالتالي أصبحت اللغة الفضاء الذي احتوى مظاهر الحياة الاجتماعية فعلاقة الثقافة باللغة علاقة يحملها الذهن البشري.

خاتمة

هل استطاع ستراوس فعلا أن يوضح آلية الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة؟

لا يمكن لنا القول هنا أنه أي ستراوس قد وضع وبشكل واضح ومحدد نتيجة واضحة تعتبر الفصل في هذه القضية لكنه أوصلنا بأسلوب غير مباشر لأن نستدل نحن، ونتبين الآلية التي ونعتقد أنه لم يسع أبداً لأن يمسك بالحد أو اللحظة التاريخية التي حولت الإنسان من كائن فطري إلى كائن ثقافي وربما أراد أن يقول بأن هذا الانتقال أمر محتم بل ولابد منه في عملية التطور إذ لا يوجد بداية نستطيع من خلالها أن نحدد متى كان الإنسان كائن كليّ الفطرة وكلي الطبيعة، فغالباً ما كان يترك خلفه آثار تدل على الحقبة التي سلفته.

الإنسان على ما يبدو من خلال ما ألمح إليه ستراوس يحوي فضاء ممتلئ بالاحتمالات اللامتناهية والامكانات اللامحدودة، وهذا ما أشار إليه وبشكل دائم عدما تحدث عن الرموز المتضمنة في ساحات اللاوعي العميق. وما يحرض هذه الاحتمالات والإمكانات على التجسد في العالم الخارجي هو احتكاكه في عالمه المادي وبيئته المحيطة به وهذا فعلياً ما أدى به إلى التطور، لكنه احتاج إلى حالة الزمان والمكان حتى يكون هذا التطور تدريجي متواتر ومتوازن وحتى تكتشف البشرية ككل إمكاناتها على الزمن وقدراتها على الخلق والابداع بالأداة الأساسية المتمثلة باللغة بما تشمله من جملة الاشارات والعلاقات والألسنة. لقد أراد ستراوس أن يذكرنا بأهمية العودة إلى الجذور والبنى الأساسية التي ارتكزت عليها أركان وأعمدة الثقافة الإنسانية بمختلف تجلياتها وفي الحقيقة هذا ما انصب عليه بحثه وهذا بالضبط ما ارتكزت عليه البنيوية الستراوسية.

على الرغم من أن اسمه اقترن بعلم اللسانيات وأن المتعارف عليه هو بحثه في اللغة لكن ستراوس في الوقت نفسه ألمح إلى أن اللغة شكلت الأنساق الاجتماعية بمختلف مظاهرها وأكد على أن تلك الأنساق هي بحد ذاتها أنساق لغوية مرمزة، وبما أن اللغة يمكن اعتبارها الحد الفاصل في ثنائية (طبيعة/ ثقافة) كان مبدأ التبادل وجهها الظاهر والواضح باعتباره نسق لغوي اجتماعي رمزي.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

1- كلود ليفي ستراوس، *الإناسة البنيانية*، ت: حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1995.

2- كلود ليفي ستراوس، *العرق والتاريخ*، ت: سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

المراجع:

3- 1 _ كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، ت: محمد بدوي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان. بيروت،2009.

4- 2 _ سايمون كلارك، أسس البنيوية نقد ليفي ستراوس والحركة البنيوية، ت: سعيد العليمي، دار بدائل، القاهرة، 2015.

5- 3_ عبد الرزاق الدواي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، دار الطليعة للدراسات والنشر، بيروت، 1992.

6- 4_دفاتر فلسفية (نصوص مختارة) الطبيعة والثقافة، إعداد وترجمة: محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء. المغرب، 1991.

7- 5_ توماس هايلاند إيركسون& فين سيفرت نيلسون، تاريخ النظرية الأنثروبولوجية، ت: لاهاي عبد الحسن، منشورات الاختلاف، الجزائر،2013.

8- 6_ مارسيل موس، بحث في الهبة (شكل التبادل وعلته في المجتمعات القديمة)، ت: المولدي الأحمر، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان. بيروت،2011.

9- 7_روبير مارتان: مدخل لفهم اللسانيات (إبستمولوجيا أولية لمجال علمي)، ت: عبد القادر المهيري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007.

10- 8_نعوم تشومسكي: اللغة ومشكلات المعرفة، ت: حمزة بن قبلان المزيني، دار توبقال، الدار البيضاء –المغرب، 1990.

11- 9_ تزفيتان تودوروف: نظريات فـي *الرمز*، ت: محمد الزكراوي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،2012.

12- 10_ فاطمة الطبال بركة: *النظرية الألسنية عند رومان جاكسون*، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت،1993.

المصادر باللغة الأجنبية

1 -LEVI-STRAUSS, C. *The Elementary Structure of Kinship*, Boston,1949, Beacon Press.

Resourses and Refrences:

1. LEVI-STRAUSS, C. *Anthropologie structural*, Translated by Hasan Qubaisi, Arab Cultural Center, Beirut, 1995.
2. LEVI-STRAUSS, C. *Race and History*, published by: Salim Haddad, University Foundation for Studies and Publishing.
3. GEERTZ, C. *The Interpretation of Cultures*. Translated by Mohammad Badawe, Center for Arab Unity Studies, Lebanon. Beirut, 2009.
4. CLARK, S. *The foundations of structuralism: A Critique of Levi-Strauss and the Structuralist Movement,* Translated by Saaed AL- Alimi, Dar Badaeel, Cairo, 2015.
5. Philosophical notebooks (selected texts) Nature and Culture, Prepared and translated by Muhammad Sbila and Abd AL- Salam Benabd AL-Ali, Dar Tobqal for Publishing, AL-Dar AL- Beyda, Morocco, 1991.
6. HYLAND, TH and SEVERT−NELSON, *The History of Anthropological Theory*, Translated by Lahay Abd AL−Hussein, AL− Ekhtelaf publishing, Algeria, 2013.
7. MOSS, M. *Essay on Giveaway (Forms of Exchange in Archaic Societies and Causes*), Translated by AL−Moldy AL−Ahmar, Center for Arab Unity Studies, Lebanon. Beirut, 2011.
8. Martin, R. *An Introduction to Understanding Linguistics* (*Preliminary Epistemology for a Scientific Field*), published

by: Abdul Qader Al Muhairi, Center for Arab Unity Studies, Beirut, 2007.

9. Chomsky, N. *Language and the Problems of Knowledge*, published by: Hamza bin Qablan al-Muzaini, Dar Toubkal, Casablanca, Morocco, 1990.
10. Todorov, T. *Theories of Symbol,* by: Muhammad Al-Zakrawi, Center for Arab Unity Studies, Beirut, 2012.
11. Baraka, F. *The Linguistic Theory according to Roman Jackson*, University Foundation for Studies and Publishing, Beirut, 1993.